خواطر في السعادة

الأب بيار تيار ده شاردان اليسوعيّ

نقلها إلى العربيّة الأب سليم دكّاش اليسوعيّ [٥]

هذه الصفحات، «خواطر في السعادة»، هي محاضرة ألقاها العالِم والفيلسوف تيار ده شاردان في بكين (الصين) في ٢٨ كانون الأوّل ١٩٤٣. إنّها، من ناحية، تُنشر للمرّة الأولى باللغة العربيّة، فيستطيع القارئ العربيّ أن يطّلع على بعض ما كتبه الأب تيار، وتضاف بذلك إلى خزانة النصوص المترجمة وثيقةٌ جديدة ليست كغيرها من الوثائق. ومن ناحية ثانية، تعدُّ هذه المحاضرة من النصوص الفنّيّة، الروحيّة والماديّة معًا، التي تلخّص إلى حدّ ما فكر تيار ده شاردان، وذلك من زاوية روحيّة إنسانيّة مهمّة، ألا وهي موضوع السعادة. فمهارة ده شاردان أنّه عالج هذه، لا من وجهة نظر أخلاقيّة أو نفسيّة فحسب، بل ربطها بأطروحته الأساسيّة الفلسفيّة والعلميّة: تتحقّق السعادة في تطوّر الإنسان وفي ارتقائه إلى الله. فالتطوّر يصدر عن الله ويعود إليه بالمسيح فيكتمل فيه. والإنسان السعيد هو مَنْ قَبِلَ أن يسير في حركة التطوّر الماديّة والروحيّة ليكتمل في الله.

المترجم

---

(٥) رئيس تحرير المشرق. مصدر هذه الصفحات بالفرنسيّة:

Pierre Teilhard de Chardin, *Sur le Bonheur*, Editions du Seuil, Paris, 1966.

إنّ الكائنات المركّبة الأكثر حقارةً في عالم المادّة الحيّة تنتقل إلى الجهة التي تمدّها أكثر من غيرها بالسعادة، شأنها شأن كلّ الأجسام التي تخضع لقوانين الجاذبيّة الكونيّة في عالم المادّة الآليّة.

لذا فالحديث عن السعادة ربّما كان من أسهل المهمّات التي يضطلع بها محاضرٌ في الموضوع. وبما أنّه حيٌّ يتحدّث إلى أحياء، فهو واثق بأنّه يخاطب مجموعة من أصحاب الفطنة والنضج. إلاّ أنّ المهمّة التي سأقوم بها أمامكم اليوم هي، بالاستناد إلى الخبرة، كثيرة الدقّة والتعقيد.

فالإنسان، شأنه شأن الكائنات الحيّة، يرغب حقيقةً في أن يكون سعيدًا. إلاّ أنّ هذا المطلب الأساسيّ يتّخذ عنده شكلًا معقّدًا وجديدًا. فالإنسان في الواقع هو كباقي الكائنات في ما يخصّ شعوره وإحساساته، إلاّ أنّ «الأنسنة» (hominisation) جعلت منه الحيّ المفكّر والناقد. وموهبة التفكير تتضمّن خاصّتين هائلتين، أعني إدراك الممكن وإدراك المستقبل. إنّها قدرة مزدوجة أدّى ظهورها إلى إحداث البلبلة والتبدُّد في ارتقاء الحياة التي كانت حتّى ذاك الوقت شديدة التناسق والصفاء. يتّحد إدراك الممكن بإدراك المستقبل فيجعلا مخاوفنا، وكذلك آمالنا، تتكثّف وتتوزّع في كلّ الأنحاء. فحيث يتقدّم الحيوان من دون صعوبة وبخطىً أكيدة نحو ما يرضيه ويشبعه، يرى الإنسان، في الموضع عينه وعند كلّ خطوة وفي كلّ صوب، مشكلةً لم يزل يفتّش، منذ أن أصبح إنسانًا، عن حلٍّ نهائيّ وشاملٍ لها، من دون نتيجة تُذكر.

كان الأقدمون يتحدّثون عن «الحياة الطوباويّة». فما هي السعادة؟

تتوالى في هذا الموضوع الكتب والأبحاث والاختبارات الفرديّة والجماعيّة، بوجه مؤثّر منذ أجيال، من دون أن يتوصّل الناس إلى الإجماع. وفي نهاية الأمر، فنتيجة النقاش العمليّة في نظر الكثيرين منّا تقضي بأنّه من العبث متابعة التفتيش. إمّا أنّ لا حلّ للمشكلة، والنتيجة أنّ لا سعادة حقيقيّة في هذا العالم، وإمّا أنّ للمشكلة حلولًا جزئيّة لا نهاية لها، وبالتالي تبقى المشكلة مُبهمة. فربّما تكون السعادة مجرّد قضيّة

تخمين شخصيّة: فالواحد يحبّ النبيذ والمآكل الطيّبة، والآخر يفضّل السيّارات والشِّعر أو أعمال الخير والمَبَرَّة. «فلكلٍّ واحد ذوقه، ولكلّ واحدٍ حظّه»: هذا ما سمعتموه كثيرًا دون شكّ، وهذا ما قد تفكّرون فيه أيضًا بعض الشيء.

أمّا ما أبتغيه الآن فهو أن أواجه مباشرة هذا التشكيك النسبيّ، وفي النهاية التشاؤميّ، وهو أمر معاصر، فأبيّن لكم أنّ حظّ السعادة العامّ لا يشوبه الالتباس على ما يُقال عادةً، شريطة أن نستند في بحثنا إلى دروس العلم والبيولوجيا ونقصر مهمّتنا على تحديد الفرح الحقيقيّ.

وبما أنّي لا أستطيع، ويا للأسف، أن أمنحكم السعادة، فلعلّني أقدر على الأقلّ أن أساعدكم في العثور عليها!

إنّ هذا العرض يتضمّن جزءَين:

في الجزء الأوّل، وطابعه نظريّ، سوف نحاول معًا تحديد الطريق الأفضل المؤدّي إلى السعادة البشريّة.

في الجزء الثاني، وهو في شكل خاتمة، سنتساءل كيف نوفّق بين حياتنا أفرادًا، والمحاور العامّة التي تُفضي إلى السعادة.

أوّلًا: المحاور النظريّة في السعادة

أ. في أساس المشكلة: ثلاثة مواقف مختلفة إزاء الحياة

من الضروريّ في بداية الأمر أن نقوم بجولة تفقّديّة، أي أن نميّز بين ثلاثة مواقف مبدئيّة، أساسيّة، يعتمدها البشر في الواقع إزاء الحياة. وذلك أمر لازم لنفهم على وجه أفضل كيف يتمّ طرح مشكلة السعادة ولماذا نقف أمامها متردّدين حائرين.

سننطلق مستندين إلى القياس. لنتخيّل مجموعة من السيّاح قصدوا أن يتسلّقوا قمّة منيعة، ولننظر إلى تلك الجماعة بعد ساعات من رحيلها.

فبعضهم ندموا على مغادرتهم الفندق، إذ إنّ التعب والمخاطر تبدو لهم غير متناسبة مع الفائدة التي ستُجنى من النجاح. هؤلاء قرّروا أن يعودوا من حيث أتوا.

وبعضهم الآخر لم يندموا لأنّهم أتوا. فالشمس تتلألأ والمشهد جميل. إلاّ أنّه لِمَ الصعود إلى أعلى؟ أليس من الأفضل الاستمتاع بالجبل حيث وصلوا، في المرج الأخضر أو في قلب الغابة؟ لذا فهم يفترشون العشب أو يستكشفون الجوار، بانتظار ساعة الطعام.

والبقيّة الباقية، أي المتسلّقون الحقيقيّون، لا يبعدون أنظارهم عن القمم التي أقسموا أن يصلوا إليها، فيتابعوا التقدّم.

مواقف ثلاثة: المُتعبون، ومحبّو العيش الرغد، والمتّقدون حماسةً.

إنّها ثلاث فئات من البشر نحملها بذورًا في ذواتنا، في صميم ذواتنا، وقد توزّعت البشريّة عليها منذ زمن بعيد.

١ - متعبون (أو متشائمون)، أوّلًا

في نظر الفئة الأولى هذه من البشر، الوجود هو خطأٌ من الأخطاء أو أمرٌ فاشل من الأمور الفاشلة. فالقضيّة أشبه بورطة، ويجب بالتالي الانسحاب من اللعبة بأفضل طريقة ممكنة. وهذا الموقف، عندما يصبح موقفًا متطرّفًا وعقيدة علميّة نظاميّة، يؤدّي بنا إلى الحكمة الهندوسيّة، التي ترى في الكون وهمًا وقيدًا، وإلى تشاؤم من نوع تشاؤم الفيلسوف شوبنهاور. إلاّ أنّ هذا الموقف يظهر أيضًا ويعلن عن نفسه وتحت أشكال مخفّفة وشائعة، في مجموعة من الأحكام العمليّة التي تعرفونها جيّدًا: «فما الفائدة من السعي...؟ ولماذا لا يُترك المتوحّشون لوحشيّتهم، والجهلة لجهلهم؟ ولماذا العِلم ولماذا الماكينة - الآلة؟ أليس الأفضل أن يكون الواحد ممدّدًا من أن يكون واقفًا، وأن يكون ميّتًا من أن يكون نائمًا؟...» فهذا كلّه يعني، أقلّه بصورة ضمنيّة، أنّه من الأفضل أن يكون الواحد «أقلّ»، لا أن يكون «أكثر»، وأنّ الأفضل هو ألاّ يكون شيئًا على الإطلاق.

٢ - محبّو العيش الرغد (أو المتمتعون بالحياة)، ثانيًا

في نظر الفئة الثانية هذه من البشر، لا شكّ أنّه من الأفضل أن نكون من ألاّ نكون. إلاّ أنّ فعل «كان»، ولتنبّه إلى ذلك، له معنى محدّد في هذا الإطار. فأن نكون ونحيا، في نظر أتباع هذه المدرسة، لا يكون معناه العمل، بل إشباع النفس من اللحظة الحاضرة. فالحكمة، في رأي هؤلاء، تكمن في الاستمتاع الحريص بكلّ لحظة وبكلّ شيء، من دون فقدان أيّ ذرّة منه، وخصوصًا من دون الإهتمام بتبديل النيّة والعزم. فبعد أن يكون محبّو العيش قد شبعوا، تراهم يتمرّغون في العشب ويزيلون خَدَر سيقانهم ويتقلون من مشهد إلى آخر، وبذلك لا يتردّدون في النزول إلى أسفل. أمّا في ما يختصّ بالمستقبل، فلا يخاطرون به ولا في سبيله، إلاّ إذا تسمّموا من جرّاء الاستمتاع بالخطر نفسه أو من جرّاء الإفراط في الترف، أبهدف تذوّق رعشة التجرّؤ كان ذلك أو بهدف الشعور بقشعريرة الخوف. هكذا تتصوّر، في شكل مبسّط، مذهب الهيدونيّة الوثنيّ كما أفرزته مدرسة أبيقور. تلك كانت، على كلّ حال، في إطار الحلقات الأدبيّة منذ أمد قصير، نزعة پول موران أو مونترلان، أو نظرة أندريه جيد (في كتابه المآكل الأرضيّة)، الذي كان مَثَل حياته الأعلى الشربُ من دون إرواء العطش، وذلك بهدف زيادة العطش، لا بنيّة استعادة القوى، بل بهدف البقاء على استعداد للانحناء، بنهم متزايد، على كلّ ينبوع جديد.

٣ - والمتقدون حماسةً، أخيرًا

في نظر هؤلاء، وهم يؤلّفون المجموعة الثالثة، الحياة صعود واكتشاف. والأفضل ليس في أن نكون من ألاّ نكون، بل إنّه من الممكن دومًا والمستحسن أن نصبح «أكثر». ففي نظر أولئك الفاتحين، عاشقي المغامرات، الكائن هو كائن لا ينضب، لا على طريقة أندريه جيد، كأنّه جوهرة متعدّدة الوجوه يُستطاع تقليبها من دون تعب، بل لأنّه مركز حرارة ونور ومن المستطاع الاقتراب منه أكثر فأكثر. فمن الممكن التهكّم على أولئك الناس ونعتهم بالبطاء واعتبارهم من المزعجين. إلاّ أنّه من الواضح

أنّ أولئك هم الذين صنعونا، وأنّ أرض الغد سوف تخرج من ضلوعهم.

إنّها ثلاثة مواقف تجاه الحياة، كما قلتُ سابقًا وأكّدته. ثلاثة مواقف أساسيّة: تشاؤم وعودة إلى الماضي، الاستمتاع بالوقت الحاضر، الوثوب إلى المستقبل. هذا ما يضعنا، بصورة حتميّة وتلقائيّة، في صُلب موضوعنا وإزاء ثلاثة أشكال من السعادة.

أ) النوع الأوّل هو السعادة في الطمأنينة. لا للمتاعب، لا للمخاطر ولا للجهد. فلنقلّل من الاتّصالات، ولنقتصد في حاجاتنا، ولنقسّ قلوبنا، ولننغلق على نفوسنا. الإنسان السعيد هو مَن قلّ تفكيره واقتصد في رغباته وإحساساته.

ب) السعادة في اللذّة، ثانيًا. إنّها سعادة لامتحرّكة، أو قُلْ سعادة تتجدّد باستمرار. فغاية الحياة هنا ليست في العمل أو في الخَلْق، بل في الانتفاع. إنّه مبدأ بذل الجهد الأدنى، أو مبدأ الجهد الضروريّ فقط، للانتقال من كأس إلى أُخرى ومن شراب إلى شراب. فوصفة الحصول على السعادة تقضي بالتمدّد إلى أبعد حدّ ممكن، مثل تمدّد الورقة تحت أشعّة الشمس، وبتغيير الموقع في كلّ لحظة للوصول إلى الإحساس الأعمق. والإنسان السعيد هو الذي عرف كيف يتذوّق، على وجه أكمل، اللحظة الحاضرة.

ج) السعادة في النموّ، أخيرًا. من المنظور الثالث هذا، لا وجود للسعادة، ولا قيمة لها، بذاتها، كما لو كانت شيئًا يمكن متابعته وإدراكه بذاته. فالسعادة هنا ليست إلاّ الإشارة والأثر والمكافأة بالنسبة إلى الفعل الذي تمّ توجيهه على نحوٍ سليم. «إنّها من مشتقّات الجهد»، على ما قال أ. هُكْسلي. لذلك لا يكفي التجدّد كيفما كان، على نحو ما ترحي به البيدونيّة المعاصرة، ليكون الإنسان سعيدًا. فالتغيير لا يُنتج السعادة على الإطلاق، إلاّ إذا تحقّق إبّان الصعود. فالإنسان السعيد هو ذلك الذي يجد الفرح بوجه حتميّ، وبالمزيد، من دون السعي المباشر للسعادة، بل في فعل السعي للكمال وفي فعل تحقيق الذات بالاتّجاه نحو الأمام.

السعادة في الطمأنينة، السعادة في اللذّة، والسعادة في النموّ.

وبين هذه الدرجات الثلاث، تتردّد الحياة، على مستوى الإنسان، وتوزّع تيّارها تحت أنظارنا.

وإذا ما أردنا تعليل اختيارنا، أليس هناك من علّة حقًّا، كما نردّد دومًا، سوى ما يفضّله ذوقنا وطبعنا الفرديّ؟ أو هل نستطيع أن نجد، في مكان ما، سببًا لا جدال فيه نظرًا إلى موضوعيّته، يقضي بالحكم أنّ واحدةً من الطرق الثلاث هي الأفضل على الإطلاق، وهي بالتالي الوحيدة التي تقدر أن تسعدنا في الحقيقة؟

ب - جواب الوقائع

١ - الحلّ العامّ: نحو الوعي الأشمل

إنّي شديد الاقتناع، في ما يختصّ بي، بأنّ ذلك المقياس الموضوعيّ والذي لا جدال فيه، هو موجود، وهو ليس بالسرّيّ ولا بالمستور، بل هو ظاهر للعيان. لكي نراه، يكفينا أن ننظر إلى الطبيعة التي هي حولنا، في ضوء اكتشافات الفيزياء والبيولوجيا الأخيرة، أي في ضوء الأفكار الجديدة حول ظاهرة النشوء العظمى. فلا أحد، كما تعلمون، يشكّ اليوم في هذه المعطيات لأسباب وجيهة. الواقع أنّ الكون ليس ثابتًا «من الوجهة الكينونيّة»، بل هو يتحرّك، منذ البدء، في باطن كتلته التامّة، تبعًا لتيّارين عظيمين مضادّين: الأوّل يجرّ المادّة نحو حالات من التفتّت القَصِيّ، والآخر يؤدّي إلى بناء وحدات عضويّة تكوّن نماذجها العليا، وهي معقّدة من الوجهة الفَلَكيّة، ما نسمّيه اليوم «العالم الحيّ».

وبناء على ذلك، فلننظُر بوجه أدقّ إلى ثاني هذين التيّارين، أي إلى تيّار الحياة، ونحن ننتمي إليه. فخلال قرن ونيّف من الزمن، قام نقاش بين العلماء، وقد قبلوا بواقع النشوء البيولوجيّ، لمعرفة ما إذا كانت الحركة التي تدفعنا هي نوع من الزوبعة الدائريّة المقفلة، أم إنّها تُشابِهُ انسياقًا

محدّدًا يقود الجزء الحيّ من العالم نحو حالةٍ متقدّمة محدّدة. ويبدو اليوم أنّ الثاني من الافتراضين هو الذي لاقى شبه إجماع، لكونه يعبّر عن الواقع بوجه أكيد. فالحياة لا تتعقّد من دون قوانين، كما لو أنّها متروكة للمصادفة. إلاّ أنّنا إذا نظرنا إلى الحياة في كلّيّتها، وكذلك في تفاصيل الكائنات المركّبة، وجدنا أنّها تتطوّر تطوّرًا منهجيًّا وحتميًّا نحو حالات من الوعي ترتقي ارتقاء مستمرًّا. وهكذا فظهورُ الإنسانِ النهائيُّ، الحديثُ العهد، على الأرض، ليس إلاّ النتيجة النظاميّة والمنطقيّة لتطوّرٍ ارتسمت خطوطه مع نشأة كوكبنا.

ومن الوجهة التاريخيّة، فإنّ الحياة (أي الكون عينه في الواقع، حين ننظر إليه في جزئه الأكثر حركة) هي ارتقاء وعي. ألا ترون هنا فورًا نتيجة طرحنا المباشرة على موقفنا وسلوكنا الباطنيّين؟

نتحدّث بإسهاب، كما قلت منذ لحظة، عن أفضل موقفٍ نتّخذه حيال حياتنا. إلاّ أنّنا، في هذا الحديث، ألا نشابه مسافرًا يقلّه قطار سريع بين باريس ومرسيليا، فيتساءل: ألم يكن من الأفضل له أن يرحل إلى الشمال أو إلى الجنوب؟ مع ذلك، نتناقش: فما الفائدة في ذلك، بما أنّ القرار قد اتُّخذ بمعزلٍ عنّا، وبما أنّنا ركبنا القطار. فمنذ أكثر من أربعمائة مليون سنة على أرضنا (من الأصحّ، أن يُقال: منذ البداية، في الكون)، ترتقي كتلة الكائنات العظيمة، ونحن منها، الرقيّ الأكيد العنيد نحو المزيد من الحرّيّة والإحساس والرؤية الباطنيّة. ونحن لا نزال نتساءل: إلى أين يجب أن نرحل؟...

في الحقيقة، تتبدّد ظلال القضايا الباطلة في ضوء القوانين الكونيّة الكبرى. تحت طائلة التناقض مع الطبيعة (أي تحت طائلة نقض كلّ ما نحن وكلّ ما كوّنّا)، يلزمنا، كلّ واحد باسم الجميع، اعتماد الاختيار الأوّليّ المتأصّل في العالم، ونحن منه العناصر المُفكِّرة. فالتراجع لتنقض كيانًا، والتوقّف وعدم التقدّم للاستمتاع، هما حركتان تسعى بوساطتهما لأن تقود السفينة في مواجهة التيّار الكونيّ. إنّهما حركتان من

المستحيلات السخيفة.

وهكذا، تصبح الطُرُق على يسارنا وعلى يميننا موصدة والطريق التي هي أمامنا تبقى وحدها مفتوحة.

الجواب الوحيد، من الوجهة العلميّة الموضوعيّة، الذي نستطيع صياغته حيال نداءات الحياة، هو مسيرة التقدّم. وبالتالي، من الوجهة العلميّة الموضوعيّة فإنّ السعادة الحقيقيّة الوحيدة هي ما سمّيناه سعادة النموّ أو سعادة الحركة.

هل نريد أن نكون سعداء مثل العالم ومعه؟ فلنترك المتعبين والمتشائمين يتزلتون إلى الوراء. ولنترك محبّي العيش الرغد يتمدّدون التمدّد البورجوازيّ على المنحدر. ولننضمّ، من دون تردّد، إلى مجموعة الذين يريدون المخاطرة بصعودهم حتّى القمّة الأخيرة. وإلى الأمام...

إلّا أنّ كلّ شيء لا يصل إلى تمامه في اختيار الصعود. يبقى أيضًا ألاّ نُخطئ في اختيار الطريق. حسن أن نقوم ونقف لنرحل. ولكن، ما هو الطريق الجيّد للوصول بابتهاج إلى القمّة؟ ففي هذا السياق، ولكي نبقى على أرضٍ صلبة، لنراقب خطوات الطبيعة، ولنطرح السؤال على علوم الحياة.

٢ - الحلّ التفصيليّ: أزمنة الشخصنة (personnalisation) الثلاثة

إنّ الحياة، كما قُلت آنفًا، ترتقي في العالم نحو المزيد من الوعي وبالتالي نحو المزيد المستديم من التعقيد، كما لو أنّ تعقُّد الأجسام المتعاظم غايته جعل صميم كيانها أكثر عمقًا. إلاّ أنّه كيف تتحقّق، في الواقع وفي التفاصيل، تلك المسيرة نحو الوحدة الكاملة؟

ولكي نلازم الوضوح والسهولة، نتوقّف على حدود الإنسان - الإنسان المرتقي نفسيًّا على غيره والذي نعرفه المعرفة الجيّدة بين الأحياء كلّهم.

ففي هذا الإطار، يتبيّن لنا ثلاث مراحل، أي ثلاث خطى أو ثلاث حركات متتابعة متلازمة في سياق توحّدنا الباطنيّ، أي تحقّقنا الشخصيّ. فعلى الإنسان، كي يكون كاملًا بذاته وحيًّا: أ) أن يتمحور على ذاته، ب) وأن يجعل ذاته تتمحور على «الآخر»، ج) وأن يمحور ذاته بقوّة على مَن هو أعظم منه.

فلنحدّد الحركات الثلاث هذه الدافعة إلى الأمام ولنشرحها الواحدة بعد الأخرى، والتي يجب أن يقابلها (بما أنّ السعادة، كما قرّرنا ذلك، هي نتيجة النموّ) بالضرورة ثلاثة أشكال من السعادة - المحقّقة.

أ - **التمحور، أوّلًا**. لا يصبح الإنسان إنسانًا، إن لم يتثقّف، لا بدنيًّا فقط، بل فكريًّا وأخلاقيًّا. ولا يتثقّف حتّى سنّ العشرين فقط!... فلكي نحقّق ذواتنا، علينا أن نسعى طوال الحياة لتنظيمها، أي إلى شحن أفكارنا وعواطفنا وسلوكنا بمزيد من النظام والوحدة. هذا هو كلّ برنامج (وكذلك كلّ جهد) الحياة الباطنيّة وأهمّيّتها، مع ما يتبع ذلك من انحراف نحو الأمور الأكثر روحيّة، والمتزايدة في التعالي... وكلّ واحد منّا، على مرّ هذه الحقبة الأولى، مدعوّ إلى الاستدراك وإلى استرجاع عناء الحياة الشامل لمنفعته الخاصّة. أن نكون يعني أن نصنع أنفسنا وأن ندركها أوّلًا.

ب - **تمحور الذات على الآخر، ثانيًا**. إنّ التجربة أو الوهم البدائيّ الذي يتربّص بالذات، المفكّرة التي يحتضنها كلّ واحد في عمق نفسه يكون في تخيّل الذات أنّها، إذا أرادت أن تنمو، فمن الأفضل لها أن تنعزل على نفسها وأن تحقّق كمالها بمفردها، وأن تنقطع عن الآخرين أو أن تكون المرجع في كلّ شيء. الواقع أنّه لا يقطن الأرض إنسان بمفرده، بل يسكن الأرض كتلة كبيرة من الناس، في وقت واحد. هذا الواقع هو من البديهيّات، إلاّ أنّه إذا ربطناه بالأبعاد الفيزيائيّة العامّة، يكون مهمًّا جدًّا، إذ يعني أنّ كلّ إنسان، مهما كانت الكائنات العاقلة فرديّة ومستقلّة بطبعها، لا يمثّل إلاّ ذرّة، أو إذا أردتم، جُزَيْئًا كبيرًا إلى جانب جُزَيْئات

مشابهة، تكوّن نظامًا جسمانيًا محدّدًا، لا نستطيع الإفلات منه. فالإنسان، من الوجهة الجسميّة والبيولوجيّة، وككلّ موجود في الطبيعة، هو متعدّد في الأساس. إنّنا هنا أمام «ظاهرة الكُتلة»، وهذا يعني، في مقاربة أولى، أنّنا لا نستطيع الوصول إلى أقصى الذات من دون الخروج من ذواتنا في اتّحادنا بالآخرين، بطريقة ننمّي معها بواسطة ذلك الاتّحاد المزيد من الوعي، تبعًا لشريعة التعقُّد العظمى. في هذا كلّه يتأصّل الإلحاح الشديد ومعنى الحبّ العميق، في أشكاله كافّة، فيدفعنا إلى ربط محورنا الفرديّ بمحاور أخرى مختارة مميّزة، ذلك الحبّ الذي مهمّته وسحره الأساسيّان أن يكتمل الإنسان في الآخر.

ج - التمحور الأشمل، أخيرًا. من الضروريّ أن نفهم هذا الموضوع حتّى ولو لم يكن الأمر سهلًا. فلكي نحقّق ذواتنا، علينا أن نجتهد في توسيع قاعدة كياننا، أي أن نضمّ إلى ذاتنا شيئًا «من الآخر». فبعد حصول عدد محدود من التأثيرات المميّزة، تأخذ هذه الحركة في التوسّع دون توقّف، فتمتصّنا بوجه طوعيّ، جزءًا بعد جزء، مع توسّع دائرة الشعاع بطريقة متزايدة. هذا ما هو بيّنٌ في عالمنا اليوم بشكل خاصّ. ويبدو أنّ الإنسان، منذ البدء، كان مدركًا الإدراك المبهم أنّه ينتمي إلى إنسانيّة واحدة عظمى. إلاّ أنّ هذا المعنى الاجتماعيّ الغامض لم يصل إلى مدلوله الواقعيّ والكامل إلاّ مع أجيالنا الحديثة. ففي الألفيّات العشرة الأخيرة (وهي حقبة تسارعت فيها الحضارة بشكل مفاجئ) استسلم البشر، من دون تفكير يُذكر، إلى القوى المتعدّدة التي قاربت بينهم والتي أظهرت أنّها متأصّلة أكثر من الحروب. وهكذا أخذت أعيننا تتفتّح وباشرنا رؤية أمرين: الأوّل هو أنّنا، في هذا القالب الضيّق والمحدود الذي يمثّله سطح الأرض المغلق، لم نعد نكوّن سوى جسم واحد تحت ضغط التكاثر السكّانيّ ونشاط العلاقات الاقتصاديّة الآخذة في التعدُّد. والأمر الثاني هو أنّ أفكارنا تزداد نزعة إلى الاشتغال وكأنّها خلايا في دماغ واحد، بعد أن توحّد، بصورة تدريجيّة، نظام الصناعة والعلوم. وماذا نقول أيضًا سوى أنّنا، بما أنّ التحوّل يتابع مجراه الطبيعيّ، نستطيع أن نترقّب الزمن الذي

فيه يقدر كلّ البشر معًا أن يعرفوا ماهيّة الرغبة في الشيء عينه وترقّبه ومحبّته في الوقت نفسه وكأنّهم أصحاب قلب واحد...

إنّ بشريّة الغد، قد تكون «بشريّة متفوّقة» في وعيها وفي قدرتها وفي وحدة كلمتها، هي في طور الولادة من أحشاء المستقبل لتأخذ شكلًا أمام أعيننا. وفي الوقت عينه، يولد الشعور في صميم ذواتنا بأنّه لا يكفي، لكي نحقّق ذواتنا بالكامل، أن نُشرك وجودنا بوجود عشرة أشخاص نتقيهم من بين الآلاف الذين يحيطون بنا، بل علينا أن نصبح كلّة متراصّة تجمع الكلّ.

وماذا نستنتج من هذه الظاهرة المزدوجة سوى أنّ ما تطلب الحياة منّا في نهاية الأمر أن نعمله لكي نكون، هو أن نندمج في جسم واحدٍ وأن نجتمع في كلّيّة منظّمة لنا سوى جُزَيْئاتها الواعية في الكون. محورٌ من طراز سوى متقدّم ينتظرنا، وهو في طور الظهور، لا جانبًا، بل أبعد منّا وأعلى.

فالحياة تطلب منّا، لا أن ننمّي ذواتنا فقط، ولا أن يكون لنا مَن هو ساوٍ لنا، بل أن نُخضع حياتنا ونُعيدها إلى مَن هو أرفع منّا.

بكلام آخر، المطلوب هو أن نكون أوّلًا وأن نحبّ ثانيًا وأن نعبد أخيرًا.

إنّها مراحلُ تحقُّقِ شخصيّتنا الثلاث.

إنّها ثلاث درجات مترابطة، كما ترون، في حركة الحياة التصاعديّة، وبالتالي فهي ثلاث درجات متراكبة من السعادة، إذا كانت السعادة مرتبطة حتمًا بحركة الصعود، كما رأينا سالفًا.

إنّها السعادة في النموّ، السعادة في الحبّ، السعادة في العبادة.

وهذه هي في نهاية الأمر السعادة الثلاثيّة التي تتيح لنا النظريّة أن نتبيّنها انطلاقًا من قوانين الحياة.

فما هو، بخصوص هذا الموضوع، حكم الاختبار؟

فلنحاول قليلًا أنْ نصدِّق صحّة استنتاجاتنا استنادًا إلى الوقائع وعن طريق المقاييس المباشرة.

السعادة في النموّ الشخصيّ الباطن قوّةً وشعورًا وامتلاكَ ذات. السعادة أيضًا في التلاقي، في لقاء الأجسام والنفوس التي كُوِّنت لتتكامل وتتّحد.

فبخصوص نقاوة هذين الشكلين من الفرح وزخمهما، لا فائدة في التشديد على ذلك. فالكلّ، في الواقع، يتّفقون على الإشادة بهما.

أمّا في شأن السعادة غرقًا في المستقبل، في كائن أعظم منّي... أفلسنا هنا أسرى التجريد التامّ والحلم الكامل؟ الاستمتاع بما يتجاوزنا وبما لا نقدر على رؤيته أو لمسه... فمَن يهتمّ بأمر من هذا النوع، باستثناء بعض المستيرين، في عالم الوضعيّة والماديّة حيث نحن غائصون؟

فمَن يهتمّ بذلك الأمر يا ترى؟

لكن خذوا في الحسبان فقط ما يجري حولنا!

لشهور خلت وفي أثناء اجتماع مماثل لاجتماع اليوم، عرضت عليكم أمر الزوجين كوري (Curie)، هذا الرجل وهذه المرأة كانت سعادتهما في أن يندفعا في مغامرة تقضي باكتشاف الراديوم، إذ أدركا أنّ في فقدان الحياة ربحها. وكَم من البشر الآخرين، البارحة واليوم، إن بمزيد من البساطة أو بطرق مختلفة، انقضّ عليهم، لا بل امتلكهم شيطان البحث إلى حدّ الموت بسببه؟ حاولوا أن تحصوا معي:

الذين جابهوا القطبين الشماليّ والجنوبيّ: نانسن، أندره، شاكلتون، شاركو، والكثير غيرهم.

الذين اقتحموا الجبال العالية، متسلّقو الألزاس.

الذين عملوا في المختبرات الخطرة، فماتوا بسبب الأشعّة والموادّ

التي كانوا يقلبونها، وقضوا من حقنة كيماويّة...

والذين غزوا الفضاء: إنّهم كثيرة...

والذين دخلوا عالم الإنسان واكتشفوه من خلال الإنسان، أولئك الذين خاطروا بحياتهم أو أنّهم ضحّوا بها في سبيل فكرة.

راجعوا حساباتكم على وجه التقريب. وبعد أن تقوموا بذلك، طالعوا المذكّرات والرسائل التي تركها هؤلاء الناس، إذا كانت موجودة حقيقةً، انطلاقًا من المشهورين بينهم (أولئك الذين يُحكى عنهم) إلى غير المعروفين (المجهولين)، أمثال طيّاري البريد الذين لخمسٍ وعشرين سنة خلت، في الولايات المتّحدة، شقّوا طريقًا مشبعًا بالأفكار والأحاسيس البشريّة، حتّى ولو أدّى ذلك إلى مقتلهم الواحد إثر الآخر.

ماذا تقرأون في تلك النجاوى؟

تقرأون الفرح، الفرح الأعظم والأعمق، الفرح الأقدر، الفرح المتفجّر لحياة وجدت أخيرًا المدى اللامتناهي لكي تنتشر فيه. أقول على الأكيد: الفرح في اللامتناهي.

إنّ ما يقوّض عادةً سعادتنا وبسمتها يكمن في شعورنا السريع بنفاد ما يجذبنا إليه ونهايته، وذلك يتحقّق في آلام الفراق وتآكل الأشياء، وفي القلق الذي يسبّبه الوقت الذي يمضي، والرعب أمام سرعة عطب ما نمتلكه، وخيبة الأمل من جرّاء عدم الوصول سريعًا إلى تحقيق ذواتنا وكمال حبّنا...

إلاّ أنّ مَن اكتشف، في مثالٍ أعلى أو قضيّة، سرّ التعاون والتطابق، من قريب أو بعيد، مع كونٍ في حالة تقدُّم، يرى هذه الظلال كلّها تتبدّد. فالفرح في العبادة يحتوي على سلام رائع، وهو يأتي بهذا السلام كاملًا. إنّه يرتدّ على الفرح في الوجود وعلى الفرح في الحبّ، لا لينقّص منهما أو يعمل على تدميرهما، بل ليوسّع آفاقهما ويثبّتها (ألم يكن كوري وترمبيه صديقين وأبوين وزوجين رائعين؟). أمّا ما يغذّي

السلام، فهو لا ينضب، إذ إنّه يختلط، تدريجًا، باكتمال العالم وانقضائه حولنا. إنّه ينجو، لهذا السبب بالذات، من كلّ تهديد بالموت والهلاك. وفي النهاية، إنّه في متناولنا دون انقطاع، بوجه من الوجوه، بما أنّ الطريقة الفُضلى لإدراكه تكمن في أن ننجز ما هو بالإمكان، على الوجه الأفضل، كلٌّ في مكانه.

إنّ فرح العنصر الذي أصبح يدرك كلّيّته يخدمها ويكتمل فيها، والفرح الذي تستمدّه الذرّة الواعية من الشعور بدورها واكتمالها في وسط الكون الذي يحملها، هو الشكل الواقعيّ والشرعيّ، الأرفع والمتقدّم للسعادة التي كان يمكن أن أعرضها عليكمْ وأتمنّاها لكم.

ثانيًا - قواعد السعادة الأساسيّة

لندع الآن جانبًا النظريّات المجرّدة، ولنتطرّق إلى تطبيقها في حياتنا الفرديّة.

إنّ السعادة الحقّ، كما أوضحنا سابقًا، هي سعادة في النموّ، وهي، على هذا التحديد، تنتظرنا في وجهة معيّنة:

١ - في توحُّد ذواتنا في أعماقها.

٢ - في اتّحاد كياننا بكيانات أخرى، أمثالنا.

٣ - بخضوع حياتنا لحياة أعظم منها.

فماذا ينتج من تعريفات تصرّفنا اليوميّ هذه؟ وكيف علينا أن نتصرّف وأن نعمل لنكون سعداء؟

المفروغ منه، في هذا السياق، أنّه لا مجال لي إلاّ أن أضع بعض التوجّهات العامّة لحبّكم المعرفة وإرادتكم الطيّبة. الواقع أنّ قضايا الذوق والحظّ والمزاج تبرز هنا بوجه شرعيّ. فالحياة لا تنشأ ولا تنمو طبيعيًّا وبيولوجيًّا، إلاّ بفضل تنوّع عناصرها الشديد. فكلّ منّا يرى العالم وينظر إليه من زاوية خاصّة، بالتحفّظ والحيويّة المتلوّنة التي لا يمكن الكشف عنها (إنّه التنوُّع المتكامل الذي يؤسّس، ونقول هذا عرضًا، قيمة «الشخصيّة

البيولوجيّة»). وإذ ذاك بمقدور كلّ واحد بمفرده أن يكتشف لنفسه، بالنتيجة، الموقف والحركة الفريدة اللذين يجعلانه متناسقًا، إلى الحدّ الأقصى، أي في حالة من السلام الطوباويّ، مع الكون السائر حوله.

وبعد أن أثبتنا هذه التحفّظات، يبقى أن نصيغ قواعد السعادة الثلاث، بالتوافق مع الأبعاد التي أوردناها منذ لحظة:

أ - لبلوغ السعادة، من الضروريّ أوّلًا، أن نقاوم النزعة إلى الجهد الأدنى الذي يجعلنا أو أن نبقى في مكاننا أو أن نسعى بالأحرى لتجديد حياتنا في البلبلة الخارجيّة. من اللازم، على الترجيح، أن ننمّي الجذور العميقة في الحقائق المادّيّة الفنّيّة والحسّيّة التي تحوطنا. إلاّ أنّ السعادة بالنتيجة تنتظرنا في العمل على ارتقاء الكمال الباطنيّ، الفكريّ والفنّيّ والأخلاقيّ. فالأمر الأهمّ في الحياة، كما كان يقول نانسين، هو في أن يجد الإنسان ذاته، أن يجد الفكر الذي كُوِّن بكدٍّ من خلال المادّة وما فوق المادّة. التمحور.

ب - لبلوغ السعادة، ينبغي ثانيًا، أن نقاوم الأنانيّة التي تدفعنا إلى الانغلاق على ذواتنا أو إلى وضع الآخرين في سيطرتنا. فطريقة الحبّ - السيّئة، المُجْدِبَة - هي التي نسعى بوساطتها للامتلاك بدل بذل الذات. وهنا يبرز ثانية، في إطار الحياة الزوجيّة أو الجماعيّة، قانون الجهد الأكبر الذي كان ينظّم مسيرة تطوّرنا الباطنيّة. فالحبّ الوحيد المؤدّي إلى السعادة هو ذاك الذي يعبّر عن ذاته بالتقدُّم الروحيّ الذي نحقّقه معًا. التمحور على الآخر.

ج - ولبلوغ السعادة، السعادة الأكيدة، ينبغي ثالثًا، بوجه من الوجوه، مباشرةً أو بفضل وسائط تتدرّج أنواعها (من البحث والمهمّة إلى الفكرة والقضيّة...) ربط غاية وجودنا النهائيّة بمسيرة العالم حولنا وبنجاحه. علينا، مثل الزوجين كوري، وترميه ونانسن ومثل الطيّارين الأوائل الذين حدّثتكم عنهم آنفًا، أن نضع قُطب وجودنا في ما هو أشمل منّا، للوصول إلى منطقة الأفراح العظمى الثابتة. هذا لا يفترض، ولتهدأ

خواطركم، أن نجترح الأعمال العظمى الخارقة، إذا ما أردنا الوصول إلى السعادة، بل أن ننجز فقط بنُبلٍ أحقر الأمور، وهذا في متناول الجميع، في وقت نحن فيه مدركون تضامننا الحيّ مع أمر عظيم. أُضيف نقطة واحدة إلى نسيج الحياة البهيّ تقضي بتمييز اللامحدود الذي يتكوّن في صميم أحقر نشاطاتنا ومتناهاها، وهو يجذبنا إلى ذينك الصميم والمتنهى. إنّه تمييز اللامحدود والدخول فيه، وذلك هو في نهاية الأمر، سرّ السعادة الكبير. «إنّ الفرح الأكبر بين الأفراح كلّها يكمن في اتّحاد عميق وغريزيّ بتيّار الحياة الشامل»، على حدّ ما اعترف بذلك برتران راسل نفسه، أحد أدقّ المفكّرين وأقلّهم روحانيّة في أنكلترا الحديثة. التمحور الأشمل.

وإنّي، إذ بلغت هذه النقطة التي هي الكلمة المفتاح في ما استطعت أن أقوله لكم، دعوني أختم حديثي بملاحظة أنا مدين بها لكم ومدين بها لنفسي، لأكون صادقًا.

كنت أقرأ منذ عهد قريب كتابًا غريبًا يعرض فيه الروائيّ والفيلسوف الإنكليزيّ ويلز آراء فريدة صاغها البيولوجيّ ورجل الأعمال الأميركيّ وليام بُرُو ستيل، في الموضوع الذي ناقشناه هذا المساء، موضوع السعادة البشريّة بالضبط. وقد سعى ستيل، بكثير من المنطق والسلطة، لإثبات (كما فعلتُ بنفسي على مرّ الصفحات) أنّ الإنسان لا يستطيع بلوغ ماء السعادة إلاّ إذا أسقط غاياته وآماله في غايات العالم وآماله، وعلى وجه التحديد في ما يخصّ البشريّة، إذ إنّ السعادة غير منفصلة عن فكرة الخلود. مع ذلك، يُضيف ستيل: يبدو هذا الحلّ، كما هو مبيّن، ناقصًا بعض الشيء. لأنّه، إذا أردنا بلوغ الكمال، ينبغي لنا أن نحبّ. لكن كيف نستطيع أن نحبّ الواقع الجماعيّ، اللاشخصيّ، - الفظيع في بعض وجوهه - كما يبدو العالم أو البشريّة

إنّ الاعتراض الذي وجده ستيل في صميم قلبه والذي لا يجيب عنه، هو اعتراض صحيح، بشكلٍ مريع ومؤلم. لن أكون إذًا كاملًا ولا

صادقًا إن لم أجعلكم تلاحظون أنّ الحركة الأكيدة التي تضع الكتلة البشريّة نصب أعيننا في خدمة التقدّم ليست «كافية بذاتها»، بل إنّ الوثبة الأرضيّة هذه، التي أدعوكم إليها، تستدعي، لكي تقف على رجليها، أن تتآلف مع الوثبة المسيحيّة وأن ترتبط بها.

إنّ قوّة البحث العلميّ اللدُنيّة، وكذلك القوى الاجتماعيّة اللدُنيّة، تنطلق نحو غزو المستقبل بإيمان رائع. إلاّ أنّ هذه القوى، لا تسعى في هذه المسيرة لعبادة أيّ قمّة محدّدة، والأخطر من ذلك، لعبادة أيّ غرضٍ موضوع حبّ. ولذلك السبب، في الحقيقة، أنّ ما تثيره تلك القوى من الحماسة والتفاني هو قاسٍ وجافٌّ وبارد وحزين، أعني أنّه مثير للقلق في نظر المراقب، وفي النهاية، لا يحقّق السعادة في نظر الذين ارتقوا إليه.

إلاّ أنّه إلى جانب تلك القوى الروحيّة، لا بل في هامشها حتّى الآن، لا تزال قوّة المسيحيّة الروحيّة، منذ ألفي سنة، تدفع دومًا إلى الأمام فكرة إلهٍ شخصيّ، لا خالق فقط، بل محرّك وضابط كونٍ يعيده إليه بواسطة كلّ القوى التي نجمعها تحت عنوان التطوّر. فضخامة العالم المثيرة للقلق تتّجه شيئًا فشيئًا، بفعل جهد الفكر المسيحيّ المتلازم، نحو العلاء إلى أن تتجلّى في دار الطاقة المحبّة!...

وكيف لا تصدّق أعيننا، وإنّي أطرح عليكم السؤال، أنّ هذين التيّارين العظيمين، اللذين يتوزّع بينهما في الحاضر محورُ الطاقات الروحيّة البشريّة، أعني تيّار التقدّم البشريّ وتيّار المحبّة العظمى، لا يطلبان سوى أنّ يتآلفا ويتكاملا؟

فلتتصوّر من جهة أنّ تفجّر الطموح البشريّ اليافع، وقد زادت من حميّته تصوّراتنا الجديدة للزمن والفضاء والمادّة والحياة، قد دخل في الماويّة المسيحيّة لتغنيه وتقوّيه. ولتتصوّر، في الحين نفسه، ومن جهة أخرى، أنّ وجه مسيح كونيّ عصريّ، كما يصيغه في هذا الوقت الوجدان المسيحيّ، احتلّ قمّة أحلامنا في التقدّم وبرز عليها وتلألأ، إذ إنّه فسّر تلك الأحلام وأنسنها وشخصنها. ألا يكمن في ذلك الجوابُ، الجراب

الكامل عن الصعوبات التي يتخبّط فيها عملنا؟

إنّ الروحانيّة المسيحيّة تعرّض نفسها للوهن والهزال والضياع في السحاب، لتعذُّر بثّ دم مادّيّ جديد فيها. ويوشك اتّجاه التقدّم البشريّ أن يتحوّل عن الماكينة الكونيّة المخيفة التي تَداخل بها، لتعذّر بثّ مبدأ الحبّ الكونيّ فيه.

فلنضمّ الجسم إلى الرأس والقاعدة إلى القمّة. عندئذٍ، فجأة، سيتحقّق الكمال.

وفي الواقع، أنّني أرى حلّ قضيّة السعادة الشامل في خطّ الأنسيّة المسيحيّة (Humanisme Chrétien) أو، إذا أردتم، في خطّ المسيحيّة المتفوّقة إنسانيًّا، حيث يفهم كلّ ذي بشرٍ أنّه يستطيع في أيّ وقت وفي أيّ حالة، لا أن يخدم فحسب (وهذا ليس كافيًا)، بل أن يحبّ في الأشياء كلّها (في الأشياء الأكثر لطافة وجمالًا، وكذلك في الأشياء الأكثر قساوةً وتفاهةً) كونًا مثقلًا بالحبّ في تطوّره.

صدر حديثًا عن دار المشرق